إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الثانية عشرة – العدد الخامس والأربعون – ربيع ١٤٠١ش / آذار ٢٠٢٢م

صص ٩١ ـ ١١٢

دراسة مقارنة لموضوعات شعر رثاء المدن فى الأندلس والشرق العربى

سيده محترم شب پابيشه*
سيد بابک فرزانه (الكاتب المسؤول)**
مرضيه قلى تبار***
عليرضا باقر****

الملخص

إن رثاء المدن فى الأدب العربى يعنى البكاء على المدن التى دمرتها الحروب والفتن أو أنواع الكوارث الطبيعية. وطالما كان هذا النوع من الرثاء من أهم الأغراض الشعرية فى الأندلس والشرق العربى لأنه واكب وتيرة الأحداث والتغيرات السياسية وأعاد قراءة الأحداث. يسعى هذا المقال بطريقة وصفية تحليلية للتعريف ببعض هذه المراثى ودراسة موضوعات قصائد كلا القطرين باحثا عن وجوه الاشتراک والافتراق بينهما. وبحسب نتائج الدراسة هناک قواسم مشتركة عميقة فى أفكار شعراء الأندلس والشرق العربى تنبع من الوضع السياسى والاجتماعى القائم فى المجتمع آنذاک. من ناحية أخرى من خلال دراستنا لرثاء المدن المنهارة سنرى أن وصف ازدهار المدن ومجدها وازدهارها قبل الدمار والندب والتحسر على فقدان النعم والمشاعر الدينية هى من بين الموضوعات المشتركة فى مراثى شعراء البلدين وفى نفس الوقت هناک اختلافات بينهما فمثلا فى رثاء المدن الأندلسية نرى اهتماما بموضوعات كالاستغاثة والحنين الى الوطن لامثيل لها فى المراثى الشرقية. وبصورة عامة يمكن القول إن قصائد رثاء المدن فى الأندلس جاءت بمعان وصور أكثر عمقا وتأثيرا فى المتلقى وإن كان للشرق فضل الأسبقية فى التطرق إلى هذا الفن الشعرى.

الكلمات الدليلية: رثاء المدن فى الشرق العربى، رثاء المدن فى الأندلس، شعراء الشرق، شعراء الأندلس.

*. طالبة الدكتوراه فى اللغة العربية وآدابها، فرع طهران الشمالية، **جامعة آزاد الإسلامية**، طهران، إيران
. أستاذ فى قسم اللغة العربية وآدابها، فرع علوم وتحقيقات، **جامعة آزاد الإسلامية، طهران، إيران
Dr.farzaneh@gmail.com
***. أستاذة مساعدة فى قسم اللغة العربية وآدابها، فرع طهران الشمالية، **جامعة آزاد الإسلامية**، طهران، إيران
****. أستاذ مساعد فى اللغة العربية وآدابها، فرع طهران المركزية، **جامعة آزاد الإسلامية**، طهران، إيران
تاريخ الاستلام: ١٤٤١/١٢/١٨ق تاريخ القبول: ١٤٤٢/٠٧/٠٨ق

المقدمة

يعد الرثاء من إحدى أغراض الشعر التى طالما نظر إليها الشعراء وموضوع هذا النوع من الشعر هو البكاء والحداد على الراحلين وذكر فضائلهم وصفاتهم الحسنة ويمكن أن يكون الحداد على ملوك الزمان وكبار رجال العلم والسياسة والأبطال والأصدقاء والأقارب والزوجة والأولاد. وهناك نوع من الرثاء اشتهر فى الأدب العربى بـ"رثاء المدن" وذلک أن يقوم الشاعر بتأليف قصائد ترثى المدن والبلاد التى تم تدميرها إثر الكوارث الطبيعية أو الحروب التى حدثت فى فترة من الزمن. يعرف هذا النوع من أيضاب «شعر النكبات والكوارث، الشعر الحزين، الشعر الوطنى، ندب الدول والبلدان.» (ضيف، ١٩٥٥م: ٤٧-٤٠؛ بَهجت، ١٩٨٨م: ٣٠٢) و تكون المشاعر والعواطف فى هذا الأسلوب أعمق ويتميز بالتعبير الحزين وقوة أثر فى الكلام.

يختلف الباحثين فى أصل نشوء هذا الشعر اذ يعتقد البعض أنها ظهرت فى الشرق لأول مرة كما يشير اليها أحمد مكى: «بكاء المدن الزاهرة شعرًا حين تأتى عليها الفتن المدمرة، والممالک حين تذهب بها الثورات العاتية، له أصول مشرقية، أول ما نلتقى بها فى تلک الدموع الغزيرة التى ذرفها الشعراء على بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ق = ٨١٢ م.» (مكى، ١٩٨٧م: ٢٠١) كما يؤمن شوقى ضيف بذلک: «فقد كانت الكتلة الاندلسية تنساق نحو التقليد المشرقى بكل ما فيه... وما آرانى أبعد إذا قلت أن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها فى ذلک شأن الاقاليم الاخرى.» (ضيف، ١٩٦٠م: ٤١٢) فى حين أن البعض اعتبر هذا الرأى مبالغًا فيه إلى حد ما بقولهم: «لا يخلو هذا القول – فى نظرى – من المبالغة والمغالاة برغم ذلک فان للأدب الأندلسى شخصية متميزة وطابعا خاصا ولا ندرى ماذا نسمى ابتكارهم لفن الموشحات، وافتنانهم فى اختراع الصور النابضة من شعر الطبيعة.» (الكفاوين، ١٩٨٤م: ٤٥٧- ٤٥٨)

لكن فريق آخر يعزو رثاء المدن إلى المغرب الإسلامى فـ«منهم من فرّق بين رثاء المدن ورثاء الممالک فأطلق الأول على تلک المدن التى سقطت فى يد الإسبان واستلبت من أيدى المسلمين فبكاها الشعراء، وأطلق الثانى على دول ملوک الطوائف

التى سقطت بدخول المرابطين الى الاندلس، وما نظمه الشعراء من قصائد شعرية تأسى وتأسف على المجد الزائل والسيادة الآفلة لهولاء الملوك. ويصح أن ينسحب هذا المفهوم على المدن التى سقطت وخربت بفعل الفتن التى طرأت على الأندلس بسبب فساد الأحوال السياسية، وتَرَدّيها.» (بهجت، ١٩٨٨م: ٣٠٣)

وهكذا يتحدث أحمد مكى عن كيفية نشوء المراثى الأندلسية «أما فى الأندلس فولد هذا الشعر بين الأحداث المتلاحقة، ومن الصراع المستمر بين الأحزاب المختلفة التى قامت على أنقاض الخلافة المنهارة، وبين الأندلسيين وغزاتهم من أفريقية، وبينهم وبين النصارى فى شمال وطنهم، ومهد له التغنى بحب الوطن قرية أو ضعيفة، ومدينة أو عاصمة، وكل الأرض التى جابها الشاعر حباً فى الرحلة، أو طلبا للرفد والمتعة، يصف ما على وديانها من زهر وثمر، وما فى سمائها من برق وسحب وما يخترقها من بحيرات وأنهار، وما يتحرك عليها من طير وحيوان وما له فيها من صداقات وذكريات، ومجالس أنس وشراب. فإذا افتقد ذلک غريباً حن إليه، وإذا ذهبت به الحرب بكاه، وكان لنا مع هذه المشاعر شعر يرثى المدن الذاهبة، والممالک الضائعة، والأرض تسقط فى يد العدو، ويصوّر فى جوى صادق فواجع المسلمين.» (مكى، ١٩٨٧م: ٢٠٤-٢٠٥)

ورغم أن شعراء الشرق الإسلامى والأندلس قد اختبروا شعر رثاء المدن وكتبوا قصائد رائعة فى هذا المجال إلا أن المؤكد أن هذا الفن الشعرى لم يزدهر فى الشرق الإسلامى كما فى الأندلس. ولعل السبب فى ذلک أن وتيرة الأحداث والتطورات السياسية والاجتماعية فى الأندلس كانت متسارعة آنذاک لأنه كان الصليبيون ينوون طرد المسلمين من هذه الأرض مما أدى إلى مواجهة بينهم. وعليه فاللجوء إلى قصائد رثاء المدن يأخذ جانبا كبيرا من الأهمية بالنسبة للمؤرخين بهدف إنارة أجزاء من التاريخ السياسى للمسلمين خاصة وأن معظم هذه القصائد لها طابع الحقيقة أو قريب من الواقع. وبناءً على ذلک يسعى هذا البحث إلى دراسة أهم قصائد رثاء المدن العربية فى الشرق والغرب والتى أوضحت المساحات السياسية والثقافية والدينية للمدن المحتلة ويتطرق بنهج تحليلى وصفى لموضوعات وخصائص كل من هذه القصائد للتعبير.

خلفية البحث

تم تاليف العديد من الدراسات والأبحاث حول رثاء المدن والممالک بما فی ذلک کتاب *الرثاء فی الشعر العربی* (بیروت، ٢٠٠٨م) لعباس الحلی؛ *شعر الرثاء فی عصر ملوک الطوائف فی الأندلس* لعبداللطیف عیسی (الأردن: ٢٠١٣م)، ومقال بعنوان «فن الرثاء بین عصرین المملوکی والعثمانی» لنبیل خالد أبوعلی (مجلة الجامعة الإسلامیة، ج ١٧، العدد ٢، یونیو ٢٠٠٩م، غزة) و«تجلیات سقوط المدن الأندلسیة فی الشعر الأندلسی من (٤٥٦ق – نهایة القرن السابع الهجری)» تالیف آمنة سلیمان البدوی (دراسات، العلوم الإنسانیة والاجتماعیة، الجامعة الأردنیة، المجلد ٤٠، العدد ٢، ٢٠١٣). یمکن أیضًا قراءة المقالات التالیة فی المصادر اللاتینیة: «البیری: "موقف أدبی" بقلم نیکولا کاربنتیر (جامعة برشلونة: ٢٠١٦م)[1]؛ القصیدة الأندلسیة المجهولة لمعرکة "غرناطة" بقلم سامی حنا (الدراسات الآسیویة والأفریقیة، الفصل الأول، بورتلاند، ٢٠٠٠م، ص ٥١-٥٦)[2]» یذکر أن مؤلفی هذه الدراسات قاموا فی الأغلب بجمع وتحلیل بعض قصائد الرثاء فی عصور مختلفة لکن تهدف هذه المقالة إلی دراسة وتحلیل مراثی المدن العربیة الأندلسیة والشرقیة هادفا مقارنة الموضوعات والمضامین المحددة لقصائد کل من هذین القطرین والتی لم یتم دراستها حتی الآن.

أسئلة البحث

ما هی أوجه الاشتراک والافتراق فی مراثی المدن الشرقیة والأندلسیة؟

فرضیة البحث

بسبب وقوع الحروب الصلیبیة والسقوط المتعاقب لمدن الأندلس أصبحت تقنیة رثاء المدن فی الأندلس أکثر نضجا من نظیرتها فی الشرق الإسلامی.

1. Nicola carpentieri. «Abu ISHAQ AL-ILBIRI: A LITERARY REVISITATION». MEDIEVALIA.1/19. 2016.

2. Sami A. HANNA. AN ANONYMOUS ANDALUSIAN ELEGY ON THE WAR OF GRANADA.portland. USA. 2000.

رثاء المدن فى الشرق الاسلامى

بسبب انتشار الحروب والفتن والكوارث الطبيعية المدمرة يحتل رثاء المدن مكانة خاصة فى الأدب العربى فى الشرق الإسلامى وذلک يعنى «بكاء المدن التى أصابها الدمار والخراب.» (رشيد، ١٩٨٩م: ٣٩) وضاعت نتيجة للحروب والفتن الخارجية أو الكوارث الطبيعية مثل الفيضانات والزلازل أو وقعت عرضة للخراب والنهب وحرق الأماكن والمعابد. وفى هذا الصدد كتب المؤرخون عن المدن المحتلة التى تسقط مثل أوراق الشجر المتساقطة واحدة تلو الأخرى: «لقد رأينا مدناً فى المشرق تتساقط تساقط أوراق الشجر، تستوجب الرثاء والبكاء، كما سقطت بغداد فى يد التتار، وأزالوا كل ما فيها من مظاهر مدنية وحضارة، وفعل التتار فيها ما لا يقل عما فعله الإسبانيون فى الأندلس، وغزا هولاكو وتيمور لنک ونحوهما بلاد الشام.» (أمين، ١٩٩٩م: ٢٨٧/٣) المدينة جديرة بالثناء عند الشاعر لأنه تثير المشاعر والذكريات كمكان مهم وأساسى ومكان للتعود عليه. لذلک من الطبيعى أنه فى حالة الدمار ووقوع حدث مؤسف له يلجأ الشاعر إلى مشاعره ويرثى المكان بمجموعة متنوعة من العبارات الصادقة. إذا فـ«الإحساس بفقد المكان إحساس عميق، ينبثق من صميم وجدان المرء وعواطفه.» (الطربولى، ٢٠١٢م: ٣٢٦، ١٣) رثاء المدن والدول المدمرة وهو ذو جذور شرقية لا يتجلى فقط فى قصائد العصر العباسى ولكن أيضا فى الشعر الجاهلى منها قصائد امروء القيس (٨٠-١٣٠ق / ٤٩٦-٥٤٤ م) وزهير (١٣ق / ٦٠٩ م) وعنترة (حوالى٢٢ق/ ٦٠١م) بكاء على آثار "دارة جلجل" و"دار عبلة " و"دمنة أم أوفى" و"بدار عبلة" أو أسود بن يعفر (٥٨٥ م) الذى يرثى آل المحرق (ت ٢٦٨-٦٣٢ق) فى عظمتهم وحضارتهم ويبكى على أنقاض قصور "خورنق" و"سدير" و"سنداد" وهذا الاعشى الأكبر (٦٢٨م) يعض أصابعه حسرة على قصر الريمان الرائع. (البيومى،١٩٨٠م: ٢١٢؛ ضيف، *تاريخ الأدب العربى عصر الدول والإمارات الأندلس*، ٣٣٨؛ الأعشى، ديوان، ١٦٦/٢) تُظهر دراسة هذه الأماكن المرثية فى الشعر الجاهلى أن «لأكثرها قيمة رمزية وأن حالة الشاعر كانت تنبعث من جو حنين أكثر من كونها منبعثا من جو مادى، وكانت فرصة للتعبير عن الشعور بالضياع والحنين إلى الماضى ومقدمة إلى غايات

وأهداف أخرى.» (الينسون، ٢٠٠٩م: ١٨-١٧) لكن فى العصر العباسى أدى ارتفاع الفتن والحروب والكوارث الطبيعية والقتل الجماعى للناس من جهة واهتمام الشعراء بوطنهم إلى أن يصبح رثاء المدن فناً مستقلاً ويبكى الشعراء مدنهم فى صور مشحونة بالمشاعر والعواطف الوجدانية إذ «كانت المدينة فى العصر العباسى قد صارت تمثل كياناً له معنى ووجود فى نفوس أهلها وإنَّ أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط مادية ومعنوية وقد تولد فى نفوسهم -نتيجة لذلک- شعور إنسانى نبيل إزاء المدينة عبروا عنه فى صدق وحرارة عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها كأنّهم فقدوا بها عزيزاً لديهم وهكذا برز فى العصر العباسى إطار جديد للرثاء هو رثاء المدن. وقد كان جديداً بكل المعانى الكلمة، إذ إنَّ علاقة الإنسان العربى بالمدينة لم تَتَوَطَّد من قبل بالشكل الذى تَوَطَّدَت به فى العصر العباسى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تشهد المدن الإسلامية قبل هذا العصر من الدمار والتخريب ...» (الحلّى، ٢٠٠٨م: ٢٢٩) وبمعنى آخر مع سقوط بغداد بيد التتار (عام ٦٥٦ق) واجتياح بعض المدن - بما فى ذلک البصرة ودمشق - اتخذ رثاء المدن شكلاً أكثر نضجًا واكتمالاً وأصبح أسلوبًا مستقلاً بحيث نزع الشعراء إلى رثاء بغداد ومدن عربية أخرى وأنتجوا بذلک أروع قصائد يثير المشاعر ويحرک الهمم تجاه الوطن والأرض.

رثاء المدن فى المغرب الإسلامى

كان رثاء المدن فى الأندلس من أهم الأغراض الشعرية وقد نجح هذا الأسلوب فى تحليل الأحداث متماشيا مع وتيرة التطورات السياسية. وبعبارة أخرى فإن رثاء مدن الأندلس يعكس طبيعة التطورات السياسية فى فترات مختلفة ومن سماته البارزة أن الشاعر كان لديه إدراک كامل للموقف ويشاهد الأحداث بشكل مباشر. وقد أدى ذلک إلى نضج واكتمال تجربة الشاعر الفنية. فيبدو أن قصائد الشعراء فى هذا المجال انبثقت من صميم غرائزهم وطبيعته وإذا رأينا حجم شعر رثاء المدن فى أرض الأندلس هو أكثر بكثير من بلاد إسلامية أخرى ذلک لكثرة الغارات والحروب المدمرة فى الأندلس كما يصفها شوقى ضيف «قد أخذ الإسبان الشماليون يستخلصونها لأنفسهم، وكانت

کل مدینة تسقط لا تعود أبداً، والمسلمون یرون ذلک رأی العین، یرون ما یهدد دیارهم من غزو ودمار، وکلمتهم متفرقة وأهواؤهم غیر مجتمعة ینابذ الأخ وتنابذ المدینة أختها، والعـدو علی الأبواب یتربص بهم الدوائر. وما زال الشـعراء هناک یحذرون وینذرون ویسـتغیثون ویسـتنصرون، وکلما ضاعت بلدة أو مدینة ذرفوا الدموع حارة سـخینة. ومن البلدان التی أکثر الشـعراء من رثائها وندبها حین استولی علیها الأسبان طُلَیطُلَة وبَلَنسِیَة وشاطبة وقُرطُبة وجَیَّان وإشبیلیّة.» (ضیف، ۱۹۵۵م: ٤۹)

وهـذا عبدالله الزیات فی کتابه "**رثاء المدن فی الشـعر الأندلسـی**" بعد أن درس بعض قصائد الرثاء الأندلسـیة خلص إلی أن سقوط المدن الأندلسیة کان نتیجة عاملین رئیسـیین: الأول المدن التی سقطت فی فتن وثورات داخلیة والشعراء الذین بکوا هذا السقوط: قرطبة (سقوط ۱۰۱۳م)، إلبیرة، المریة (سقوط ٤۸٤ق/۱۰۹۱م) والثانی المدن التی سـقطت أمام الزحف الصلیبی والشـعراء الذین رثوها: بَربشتر(سقوط ۱۰٦٤م)، طُلیطُلة(سـقوط ۱۰۸۵م)، سُهَیل(سـقوط ۵۷۷ق /۱۱۸۱م)، قُرطُبة (سقوط ۱۲۳٦م)، بلنسیة(سـقوط ۱۲۳۸م)، جَیّان(سـقوط ٦٤۲ق/۱۲٤٦-۱۲٤٤م)، إشبیلیة(سـقوط ۱۲٤۸م)، غرناطة(سـقوط ۱٤۹۲م). (الزّیّـات، ۱۹۹۰م: ۱۳٤، ۱۳۵، ۱٦۸، ۱۸۳ و...، ۳۲۰؛ اِکبرگ، ۱۷؛ الینسون، ۲۰۰۹م: ۷۱)

أوجه التشابه فی مراثی المدن الشرقیة و الأندلسیة

من بین المواضیع الشـائعة فی رثاء مدن الأندلس والشـرق العربی یمکن الإشـارة إلی وصف ازدهار المـدن ومجدها ورونقها قبل الدمار والحنین إلی الوطن، الدعوة إلی الوحدة والتحریض علی الجهاد، ذکر أسباب السقوط، ظلم الناس والجور والاستبداد، تنبیه العاطفة الدینیة ممزوجة بالعاطفة الإنسـانیة، استصراخ الشاعر وطلب النجدة من المسلمین، اصطناع الحکمة والحدیث عن مصائب الدهر و... .(الشکعه، ۲۰۱٤م: ۵٦۱-۵٦۰، الزیّات، ۱۹۹۰م: ٤۰٤، ٤۲٦، ٤٤۱، ٤۵۳، ٤٦٤، ٤۸۷) یقول الینسون فی مقاله "العودة إلی الأندلس: شـعریة الضیاع والحنین إلی الماضی فی الأدب العربی والعبرانی فی العصور الوسـطی"[1]: ومن أهم السـمات الأدبیة المشـترکة فی رثاء المدن الضائعة

1. Looking back at Al-Andalus: The poetic of loss and nostalgia in medieval Arabic and Hebrew literature

والتى يمكن العثور عليها فى جميع قصائد رثاءالمدن هى: التكرار، ذكر الأماكن الشرقية فى القصائـد الغربية، صورة الماء فى قصائد الرثاء و... (الينسـون، ٢٠٠٩م: ٢٥-٢٦، ٢٩-٣٠، ٣٥-٣٦)

وصف ازدهار المدن و مجدها قبل الدمار

وصف المدينة قبل الفتنة ووقوع الحادثة من الموضوعات التى أدرجها شعراء الشرق والغرب الإسلامى فى قصائدهم لرثاء المدن وعبروا عن حزنهم من خلال تصوير المدن قبل خرابها. فنرى الخريمى (أوائل القرن الثالث الهجرى) فى رثاء مدينة بغداد يعبر عن حزنه الشـديد على الأحداث التى طغت على المدينـة ويعرب عن حزنه بوصف جمال مدينة بغداد ونضارتها ورحابتها ومجدها وازدهارها. فالشـاعر فى مطلع قصيدته اعتبر بغداد عروسـا ذات مظهر سـاحر ومغرى، وللإعراب عن الأسف على ضياع الازدهار وحضارة البلد الإسـلامى -وهو بغداد- يستخدم عناصر تصويرية مختلفة. وهو يهاجم خلفاء عصره ويعتبرهم السبب الرئيس لهذا الدمار وهكذا بلغة بسيطة وبليغة وبعيدة عن التصنع يلقى حزنه العميق على الجمهور ويقول:

قالوا: و لَم يَلعَبِ الزَّمانُ بِبَغـ دادَ و تَعثُـر بِهـا عَواثِرُها
إذ هى مِثلُ العَروسِ بَاطنُها مشـوّقٌ لِلفَتى و ظاهرُها
جنَّـةُ خُلـدٍ و دارُ مَغبَطةٍ قلَّ مِن النائِبـاتِ واترُها

(الطبرى، ١٩٦٦م: ٨/ ٤٤٨)

سقوط بغداد على يد المغول عام ٦٥٦ق/ ١٢٥٨م وآثار هذه الحرب الدموية والقتل الوحشـى انعكست فى شعر كثير من الشعراء آنذاك. فللتنوخى قصيدة فى هذا المجال تستحق النظر وهذا مطلعها:

تاجُ الخلافةِ و الرُّبعُ الّذى شَرُفَت بـه المَعـالِمُ قـد عَفّـاه إقفارُ

(ابن تغرى بردى، ١٩٦٣م: ٥١/٧)

يشير الشاعر إلى ازدهار ومجد العصر الذهبى فى أيام حكم العباسيين الذيين كانوا ذات يـوم زعماء لأكثر الحضـارات رقيا. واليوم تلك المدينـة التى كانت فى يوم من

الأيام مهد العلم ومركز للمعارف وعاصمة الخلافة العباسية تحولت الآن إلى رماد جراء هجوم المغول. فى هذه القصيدة يصور الشاعر الوجود والازدهار والسلطة التى تليها العدم والانهيار والفناء.

وهناك قصيدة مؤثرة للسرى الرفاء يبكى فيها الشاعر المدينة وذلك بعد حدوث فيضان نهر الموصل والذى أدى تدمير منازل الناس وتشويه صورة المدينة. ويعتبر الشاعر الكوارث الطبيعية سببا فى دمار الموصل والتى اجتاحت هذه المدينة وغيرت وجه الأرض وما لها من ازدهار وخضرة وتأتى كلها غالبا فى أسلوب يتميز بالبساطة والوضوح يعبر فيه الشاعر عن الرعب والخوف والقلق والفزع الذى يدور فى المدينة ومن خلال ذلك حاول أن يذكر فضائل مدينة الموصل ومحامدها ويتذكر الأيام الخوالى:

مَضَت نَومَةُ التَّعريس فى ظلِّ أمنِه و أعقَبَها ليلُ السَّليم المُسَهَّدِ
أرى بَلَداً يَشكو مِن الماءِ مِثلَ ما شَكا الغِمدُ مِن حَدِّ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

(السّرى الرَّفاء، ١٩٩٦م: ١٦٧)

وقد وصف شعراء الأندلس مثل شعراء الشرق جمال مدن الأندلس قبل وقوع الأحداث للتعبير عن حزنهم وأسفهم على فقدان أراضيهم وعبروا للجمهور عن أسفهم من خلال وصفهم لمجد المدينة الماضى ورونقها قبل الخراب.

ومن ذلك قصة سقوط مدينة بلنسية عام ١٢٣٨ م وما حلت بها من مصائب فنرى ابن عميرة المخزومى (٦٥٨ق / ١٢٥٨ م) قام بوصف جمال هذه المدينة وقد تأثر بما حل بها من خيانة وخراب إذ يقول:

أما بَلَنسِيّةُ فَمَثوَى كافرٍ حَفَّت به فى عُقرِها كُفّارُهُ
زَرعٌ مِنَ المَكروهِ حَلَّ حَصادُهُ بِيَد العدوِّ غداةَ لَجّ حِصارُه
و عزيمةٌ لِلشِّركِ جَعجَعَ بِالهدى أنصارُها إذ خَانَهُ أنصَارُه
مَا كانَ ذاكَ المصرُ إلاّ جَنَّةً لِلحُسن تَجرى تَحتها الأنهارُه

(ابن الأبار، ١٩٨٦م: ٢١٤ – ٢١٥)

من السمات البارزة لهذه القصيدة استخدام اللغة المقارنة لوصف الماضى والحاضر للمدن المحتلة والتى لعبت دورًا مهمًا فى إثارة مشاعر وعواطف الجمهور. يصور الشاعر

فى هذه القصيدة ماضيا مجيدًا لمدينة بلنسية ويقارنها بوضعها الحالى المؤسف وقد حولها أعداؤها إلى أطلال وقد دمروا مجده وكرامته.

ونرى شاعرا مجهولا يصور أوضاع المسلمين فى مدينة رندة التى استولى عليها المسيحيون (عام ٨٩٠ق) يعبر عن مشاعره تجاه ما حل بالإسلام بموسيقى حزينة ومشاعر صادقة وعميقة ويروى فى قصائد طويلة حزنه وتألمه بهذه الطريقة:

و كانَت عُقاباً لا يُنالُ مَطارُها و مَعقِلَ عِزٍّ زاحَمَ النَسرَ صورُها

(خفاجى، ١٩٩٢م: ١٤١)

يصف الشاعر بلغة بسيطة وبليغة المدينة المجيدة التى أطاح بها المحتلون مشيرا إلى المكانة الرفيعة والمهيبة لهذه المدينة التى كانت دائمًا فى ذروة السلطة والاقتدار. وقام بتشبيه مدينة رندة بانسان يحاول المقاومة أمام العدو ليرى للمتلقى مناعتها وعدم إمكانية الوصول إليها بسهولة... .

يقول ابن حزم الشاعر الأندلسى (٤٢٦-٣٨٢ق / ١٠٣٥-٩٩٢م):

لَئِن كانَ أظمَانَا فَقَد طَالَ ما سَقَى وإن ساءَنا فيها فَقَد طَالَ ما سَرّا

(ابن خطيب، ١٩٥٦م: ١٠٨)

وينعى الشاعر مدينة طافت حولها وأمضت ساعات سعيدة فى قصورها. إنه يصف المشهد بدقة وأناقة وذكاء ويرسم مفارقة تصويرية جميلة بين أيام مجد قرطبة الطويلة ومحنتها الحالية وذلک بهدف الحد من شدة تأثير المأساة على الجمهور. بحدة نظر خاصة يقارن الشاعر الكلمات السلبية "أظمأنا وساءنا" بالكلمات الإيجابية "سَقَى وسَرّا" وبإضافة كلمة "طالَ" زاد وزن وتأثير الكلمات الإيجابية على السلبية لإعطاء المتلقى قليلا من الراحة كأنه يقول لاتفزع فرغم أن هذه الحادثة المريرة قد أحزنتنا لكننا عشنا فى هذه الأرض لفترة طويلة فى نعمة وراحة. إذا فإن استخدام طريقة المفارقة الدلالية هذه قد أثرى معنى الشعر.

البحث عن جذور الفتن والأحداث

الانقلابات والصراعات المختلفة والحروب المتتالية فى الشرق والغرب الإسلامى

تعد من أهم العوامل فى تغيير مصير الأمم والشعوب. ومثال على ذلک مأساة بغداد فى معركة أمين ومأمون (عام ١٩٦ق) التى أدت إلى اضطراب شديد فى الحياة السياسية فى أراضى الأندلس مما دفع العديد من الشعراء للتعبير عن مشاعرهم وخلجاتهم النفسية تجاه وطنهم وأخذوا يبكون لحال بلادهم بتأليف قصائد غاية فى الروعة وقوة أثر فى المتلقى.

وهكذا ينشد الخريمى -وهو أحد شعراء العصر العباسى- فى رثاء بغداد:

فَلَم يَزَل و الزَّمانُ ذو غِيَرٍ يَقدَحُ فى مُلكِهَا أصَاغرُها
حَتَّى تَسَاقَت كَأساً مُثَمِّلَةً مِن فِتنَةٍ لا يُقالُ عَاثِرُها
وافتَرَقَت بَعدَ أُلفَةٍ شِيَعاً مَقطُوعَةً بَينَهَا أواصِرُها

(الطبرى، ١٩٦٦م: ٨/ ٤٤٨)

ويصور الشاعر غروب شمس السلطة فى بغداد وانهيار حكم الخلفاء العباسيين ويشير إلى الخلافات والفتن المثارة من أجل الوصول الى السلطة والتى جرت بين الأخوين أمين ومأمون وهما يدمران المدينة كأنهم أناس سكارى لايدرون ما يفعلون. ويلوم الشاعر مرتكبى هذه المأساة ولا يعتبر خطاياهم مغتفرة. ثم يشير الى تشرد أقوام ورجال كبار كان لهم يد فى جهاز الحكومة ثم ابتعدوا وتنحوا عن القضايا السياسية وإن مثل هذا الانسحابات من السلطة أدت إلى خلافات وانقسامات بين العباسيين.

بعد أن احتل ألفونسو العاشر ملک قشتالة مدينة قرطبة عام ٦٦٥م صرخ أبوالبقاء الرندى (٦٠١ق – ٦٨٤ق / ١٢٠٤م – ١٢٨٥م) فى حالة من اليأس والخيبة ضد هذا الانهيار والاستسلام لمطالب العدو المسيحى وذلک فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها:

لِكُلِّ شَىءٍ إذا مَا تَمَّ نُقصَانُ فلا يُغَرَّ بطِيبِ العَيشِ إنسانُ
هى الأمورُكما شاهَدتُها دُوَلٌ مَن سَرَّهُ زَمَنٌ ساءتهُ أزمانُ
فَجَائعُ الدَّهرِ أنواعٌ مُنوَّعَةٌ وللزّمانِ مَسَرّاتٌ وأحزانُ
وللحَوادثِ سُلوانٌ يُسَهِّلُها وما لِمَا حَلَّ بالإسلام سُلوانُ
دَهَى الجَزِيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ لهُ هَوى لهُ أُحُدٌ وانهدَّ ثَهلانُ

(المَقرى، ١٩٦٨م: ٤/ ٤٨٧)

كما اختار أبوالبقاء مقدمة حكمية لقصيدته النونية وحذا فيها حذو شاعر العصر العباسي أبو الفتح البُسْتى معتمدا أسلوب وسياق قصيدة البستى النونية هادفا تعميق تأثير كلمته وزيادة حلاوتها وجمالها مصورا الأحداث والمصائب التى حلّت بالأندلس وأهلها من نفى وتهجير وتفكك الأرض إلى خيانة بعض المرتزقة.

التحسر والأسف

التحسر والإعراب عن الأسف على ما فات هو أحد الموضوعات الرئيسية فى قصائد الرثاء وهى وسيلة لذكر المصيبة والتعبير عن الحزن والتأثر. وأهمية هذا الموضوع فى مراثى شعراء الشرق والغرب الإسلامى كبيرة لدرجة أن بعضهم بدأ قصيدته بالدموع والتألم ومن بين هؤلاء الشعراء ابن الرومى (٢٨٣/٢٢١ق - ٨٩٦/٨٣٦م) الذى استطاع أن يجعل أجواء القصيدة حزينة باستخدام عناصر التصوير وأسئلة استفهام إنكارى وبطبيعة الحال زاد من جمال القصيدة حيث يقول:

أيُّ نومٍ! من بعدِ ما حَلَّ بالبصـ ـرَةِ، من تلكُمُ الهَناتِ العِظامِ؟
أيُّ نومٍ! من بعدِ ما انتهك الزَّنـ ـجُ جَهاراً، مَحارِمَ الإسلامِ؟
لَهفَ نَفسِى عليک ! أيّتُها البَصـ ـرةُ لَهفاً كمثل لَهبِ الضِّرامِ!
لَهفَ نَفسِى عليک! يا مَعدِنَ الخَيـ ـراتِ لَهفاً يُعِضُّنى إبهامِى!
كم أغَصُّوا من شاربٍ بشراب كم أغصُّوا من طاعم بطعامِ ؟
كم ضنينٍ بنفسه رامَ مَنجىً فَتَلَقَّوا جَبينَه بالحُسامِ

(ابن الرومى، ١٩٩٨م: ٣/ ٣٣٩- ٣٣٨)

يبدأ ابن الرومى مطلع قصيدته بترديد بعض الكلمات (أىّ، لهفَ، كم و ...) ليخلق جوا عاطفيا حزينا من أجل لفت انتباه الجمهور إلى الموضوع وبتكرار هذه الكلمات يقدم الشاعر الخلفية للقارئ لإكمال القصيدة فى ذهنه والبحث عن إجابات لها وبالتالى فإن أسلوب الاستفهام له دور فعال للغاية فى تصوير التفاعلات الداخلية للشاعر والمتلقى. (أمين مقدسى، ١٣٩٦ش: ٦٦) لأن السؤال عندما يبرز فى مقدمة النصّ الشعرىّ يقود بنية العبارة للانطلاق فى دينامية التخييل وفورية التواصل مع المتلقّى، وهو يمثّل دائماً

الذروة المدببة المسنونة للموقف الشعرىّ، ويمتاز السؤال أيضاً بفاعلية التحوّل، وتنويع الدلالة، لأنه يسهم فى إطلاق سراح الجمل من سجن التقرير أو الثبات، ويسهم أيضاً فى شحن الموقف الشعرى بفيض من الدلالات والإيحاءات المتتالية. (شرتح، ٢٠٠٥م: ١٢٥)

وهذا ابوالبقاء الرُّندى ينشد بتحسر:

فأسأل بَلَنسيةً ما شأنُ مُرسيةٍ و أين شاطبةٌ أم أين جَيّانُ
و أين قُرطُبَةٌ دارُ العلوم، فكم من عالمٍ قد سما فيها لهُ شانُ
و أين حِمصٌ و ما تَحويه من نُزَهٍ و نهرُها العَذبُ فيّاضٌ و مَلآنُ

(المَقرى، ١٩٦٨م: ٤/ ٤٨٧)

ويؤكد الشاعر من خلال طرح الأسئلة على التناقض الواضح بين الماضى الذهبى لمدينة الأندلس وحالها المظلم ويرفع صرخاته الصاخبة المدوية ويشجع الناس على الجهاد. فإن تعدد الأسئلة فى هذه القصيدة يدل على قلق الشاعر وضيقه والاضطراب الداخلى والألم والحزن فى كلامه ويبدو أن الشاعر أراد ضمنيا أو تلويحا أن يشير إلى أن العقوق والإصرار على الخطيئة ونسيان الأوامر الإلهية جاء سببا فى حدوث هذه الكوارث والمصائب.

وفى قسم آخر منها يقول:

يا مَن لِذِلَّةِ قومٍ بَعدَ عِزِّهِمُ أحالَ حالَهُمُ كُفرٌ و طُغيانُ
وطفلَةٍ مثلِ حُسنِ الشَّمسِ إذطَلَعَت كأنّما هى يَاقُوتٌ و مَرجَانُ
لِمثلِ هذا يَذوبُ القَلبُ مِن كَمَدٍ إن كان فى القَلبِ إسلامٌ و إيمانُ

(المَقرى، ١٩٦٨م: ٤٨٨/٤)

من السمات البارزة لهذه القصيدة تباين الكلمات فى أبياتها وبهذه الطريقة استخدم الشاعر كلمات متناقضة مثل الكفر والإسلام والذل والكرامة والسيطرة والعبودية و.. لتصوير الماضى الذهبى للأندلس والوضع الفوضوى الراهن للمسلمين. ومن خلال خلق مفارقة تصويرية فى جميع أنحاء القصيدة استطاع أن ينقل للجمهور المسافة الشاسعة بين عصر الشرف والإذلال للمسلمين فى هذه الأرض.

العاطفة الدينية

تظهر الحقائق التاريخية كيف اختفت آثار الإسلام وتغيرت مظاهر الشريعة بعد الغزو المغولى للأراضى الإسلامية والغزو الإسبانى للأندلس حتى جعل البعض يقول: المتأمل فى حقيقة هذا الصراع، يدرک أنه لم يكن صراعاً من أجل دوافع عسكرية أو أطماع اقتصادية، وإنما كان حرباً دينيةً تماثل الحملات المتعاقبة التى استهدف أقطار العالم العربى وأصقاعه (حمدان، ٢٠٠٩م: ٥٩٠) ونتيجة لهذه التصرفات التى قام بها العدو المعتدى المحتل فى تدمير آثار الحضارة الإسلامية أثيرت مشاعر الشعراء ومواهبهم وقاموا بتصويرها فى قصائد مؤثرة تصف ما حل بأرض الأندلس والشرق الإسلامى من خراب ودمار ونهب.

يمكن تلخيص الموضوعات الدينية المشتركة فى مراثى مدن الشرق والغرب الإسلامية فى ما يلى:

١- **استنهاض الروح الجهادية**: ابن رومى يحرض أهل البصرة على الجهاد ونضال المعتدين فى قصيدته الميمية ويقول:

اِنفِروا أيُّها الكرامُ خِفافاً و ثِقالاً إلى العَبيدِ الطَّغامِ

(ابن الرومى، ١٩٩٨م: ٣٤١/٣)

فالشاعر بكلماته الملحمية التى تنم عن حزنه الداخلى وانحيازه لوطنه وشعبه يدعو أهل البصرة إلى معركة أخرى من أجل الانتقام ولا يقبل الذل والصمت أمام العدو. وباستخدام عناصر تصويرية يحاول إثارة حماسة أهل البصرة وتشجيع الجهاد والانتقام من الزنكيين.

وقد أنشد شاعر مجهول فى نفس الموضوع:

مَعَاشِرَ أهلِ الدِّينِ هُبُّوا لِصَعقَةٍ و صَاعِقَةٍ وَارَى الجُسُومَ ظُهُورُهَا

بأُسدٍ عَلى جُردٍ مِن الخَيلِ سُبَّقٍ يَدُعُّ الأعَادِى سَبقُهَا و زَئيرُهَا

(خفاجى، ١٩٩٢م: ١٤٥- ١٤٦)

إنه مثل مؤرخ متفكر وواقعى استطاع أن يروى بشكل جميل الحقائق والوقائع المشؤومة لتاريخ بلاده وعند رؤية المشاهد المروعة والمؤلمة فى مدينة الأندلس يرثيها

بلغة غارقة فى الحزن والأسى و يشجع الأندلسيين على الجهاد فى سبيل الله لتطهير أرضهم من قذارة المحتلين وإبقاء الإسلام حياً من خلال الجهاد ويريد منهم أن لايدعوا المسيحية تترسخ فى تلك الأرض.

٢- **الدعوة للصبر:** لشعراء الشرق والغرب الإسلامى قصائد تستحق التأمل موضوعها تحمل المعاناة والصبر على المصائب. يقول أسامة بن منقذ (٥٨٤ ق / ١١٨٨م):

ما استدرَجَ الموتُ قومى فى هلاكهمُ و لا تخرَّمَهم مَثنى و وُحدانَا
فكنتُ أصبرُ عنهم صبرَ مُحتسِبٍ و أحملُ الخطبَ فيهم عزَّ او هانا

(أسامة بن المنقِذ، ١٩٨٣م: ٣٥٦)

فى عام ٥٥٢ق دمر زلزال قوى قلعة شيزر وسبب فى قتل الناس وخراب منازلهم. وهذا أسامة بن المنقذ يعبر عن حزنه وتحسره فى قصيدته النونية وهو يصور بصدق عاطفته المشهد المؤلم لمقتل أهل شيزر ويعبر عن شدة المصاب وعمق ألمه تجاه الحدث داعيا للصبر والتحلى بالحلم فى مواجهة سطوة الدهر.

يعتقد ابن الحزم انه من الجميل التحلى بالصبر فى مواجهة الصعوبات ويقول:

سَنَصبِرُ بَعدَ اليُسرِ لِلعُسرِ طاعةً لَعلَّ جميلَ الصَّبرِ يُعَقبنا يُسرا
فَصَبراً لِسَطوِ الدَّهرِ فيهم وحُكمِهِ وإن كانَ طعمُ الصَّبرِ مُستَثقلاً مُرَّا

(ابن الخطيب، ١٩٥٦م: ١٠٨)

مع دخول المحتلين مدينة قرطبة وما تبعها من الهجرة القسرية لسكان هذه المنطقة إلى أراض أخرى يدعو الشاعر أهل وطنه إلى الهدوء والصبر فى مواجهة المصائب حتى لو كانت طعمه مريرا. يعد الصبر من التعاليم الدينية ويبشر الشاعر أهله بأن الفرج يأتى بعد الشدة وباقتباسه الآية القرآنية "إن مع العسر يسرا" يزيد من تأثير حديثه ويستعين بكلام الوحى ليضاعف حلاوة أفكاره ويجعل المشقات أكثر قبولا.

٣- **تحويل المساجد إلى كنائس:** نرى الشاعر التنوخى (٢٧٨-٣٤٢ق / ٨٩٢-٩٥٣م) ينعى مدينة بغداد بعد أن استولى عليه الصليبيون:

عَلا الصَّلِيبُ عَلى أعلَى مَنابِرِها و قَامَ بِالأمرِ مَن يَحوِيه زُنّارُ

(ابن تغرى بردى، ١٩٦٣م: ٥٢/٧)

الشـاعر يحكى فـى هذه القصيدة عن المغـول ويروى كيفية اسـتيلائهم على بغداد وكيف بنوا منها قاعدة مسيحية وأمحوا مظاهر الإسلام فيها ويصف غروب عزة الإسلام وعظمته ويعبر عن معاناته وحزنه تجاه هذا المصاب ويستخدم العاطفة الدينية لتحريض الناس وتشجيعهم على الجهاد والمقاومة.

بعد سـقوط مدينة رندة فى يد الأعداء الإسـبان يصف أبوالبقاء حزنه على اختفاء آثار الإسلام فى هذه المدينة على النحو التالى:

تَبكِى الحَنِيفِيّةُ البَيضَاءُ مِن أسَفٍ كما بَكَـى لِفِراقِ الإلـفِ هَيْمانُ
على ديـارٍ من الإسـلام خاليةٍ قـد أقْفَرَت و لهـا بالكُفْرِ عُمرانُ
حيثُ المساجدُ قدصارتكنائسَما فيهِـنَّ إلاّ نواقيـسٌ و صُلبـانُ
حتى المَحاريبُ تَبكِى و هى جامِدَةٌ حتّى المَنابِـرُ تَرثِى و هى عيدانُ

(المَقرى، ١٩٦٨م: ٤/ ٤٨٧)

فالشاعر يحرض الناس على الجهاد ويحث على المقاومة والصمود بحيث اتخذت هذه القصيدة جانبا إنسانيا وخلطت بين صدق العاطفة والصدق الفنى وإن عواطفها الدينية الصادقة تثير مشـاعر وضمير الرجل المسلم. إن اسـتمرارية العبارات والصور الفنية لهذه القصيدة يؤكد موقف الشاعر من العدو المحتل وقوة إيمانه بضرورة إخراج العدو من المدن التى احتلها بالقهر والنهب.

أوجه الافتراق (مواضيع غيرمشتركة)

الاستغاثة

شـعر الاسـتغاثة وهو يعرف أيضا بمسـميات أخرى منها (الاسـتنجاد، الاستنفار، الاسـتصراخ، الاسـتعطاف) (الدايـه، ٢٠٠٠م: ١٦٠؛ زرقـان، ٢٠٠٨م: ٨)، وهو من ابداعـات الشـعر الأندلسـى التى تحمل عاطفـة صادقة وموجعـة وتعكس صعوبات ومصائب وتحديات المسـلمين فى الأندلس فى ذلك الحين من الزمن. ولعل الاستنجاد خارج الأندلس أقوى بكثير منه داخل الأندلس، وذلك لأن الأندلس كانت تمر بظروف صعبة جدا، والمغرب العربى كان ينعم بالاستقرار وعلى مقربة من الأندلس مما دعا أهل

الأندلس للتوجه بأنظارهم إلى إخوانهم فی المغرب طلبا للنجدة والعون، فكان الشعراء خـير معبر عن تطلعات أهل الأندلس فی الدعـوة للتوحد وللنجدة (قطريب، ۲۰۱۷م: ۱۸۷-۱۸۸) شـاعت قصائد الاسـتغاثة بسـرعة فی الأندلس وتفوقت على مثيلته فی شـعر الشـعراء الشرقيين على الرغم من أسـبقيتهم واسـتمرّ هذا النوع من الشعر إلى آخر الزمان العربی فی الأندلس. (الدايه، ۲۰۰۰م: ۱٦۱) «إن الأندلسـيين اتّجهوا بنداء اسـتغاثاتهم إلى المرابطين ثم إلى الموحّدين والمرنيين والحفصيين، ثم إلى دولة المماليک فی مصر، ودولة العثمانيين فی القسـطنطينية، يسـتنجدون بهم ويسـتمدون العون منهم والتأييد.» (الباشا، ۲۰۰۰م: ۲۲۵)

أنشد ابن الأبار بأسلوب الاستغاثة وهو يستجد المسلمين لنجدة الأندلسيين:

أدرِک بِخَيلِکَ خَيلِ اللهِ أندلسَـا إنّ السَّـبيلَ إلى مَنجَاتِها دَرَسـا
وهَب لَهَا مِن عَزيزِ النَّصرِ مَا التَمَسَت فَلَم يَزَل مِنکَ عَزُّ النَّصرِ مُلتَمَسَا
و فـی بَلَنسـيةٍ منهـا و قُرطُبَـةٍ ما يَنسِفُ النَّفسَ أو ما يَنزِفُ النَّفَسَا
صِل حَبلَهَا أيُّهَا المَولَى الرَّحِيمُ فَمَا أبقى المِرَاسُ لَهَا حَبلاً و لا مَرَسَا

(ابن الأبار، ۱۹۹۹م: ٤۰۸، ٤۱۰)

وفی هذه القصيدة التی تبدأ بأجواء حزينة يخاطب الشـاعر ملک تونس أبابكر بن زكريا ويدعوه إلى الجهاد والدفاع ومساعدة ودعم أهل الأندلس ويروی المصائب التی حلت بمدينة بلنسـية. يبدأ ابن الأبار هذه العريضة بشـكل غير مباشـر بمدح الخليفة ثم يطلب منه المساعدة لإنقاذ المدينة وسكان بلنسية والدفاع عن أرضهم.

و يقول فی قسم آخر:

طَهِّر بِلادَکَ مِنهُـم إنّهُم نَجَسٌ و لا طَهَارةَ ما لَم تَغسِلِ النَّجَسَا

(ابن الأبار، ۱۹۹۹م: ٤۱۲)

ويشير ابن الأبار إلى الأعمال المخزية للمحتلين ويذكر سوء أفعالهم وشناعة اعمالهم ليثير فی ملک تونس مشـاعر الحماسة والحمية واسـتعداد للجهاد والدفاع والإسراع بطرد المحتلين من أرض المسلمين. ويطلب منه أن يطهر أرضه من قذارة من وجود هؤلاء الكافرين النجسين.

الحنين للوطن

ومن السمات البارزة الأخرى فى الشعر الأندلسى الشوق إلى الأرض والحنين للوطن ويمكن أن يعزى سبب هذا الشوق إلى عوامل مختلفة منها مثل القضايا السياسية والاجتماعية وطبيعة الأندلس «وذلک لتأثير البيئة الأندلسية من نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية وطبيعية. فقد تألق هذا الموضوع على نحو فريد من القرن الخامس الهجرى.» (بهجت، ١٩٨٨م: ٣٣٢) أجبر الأندلسيون على مغادرة وطنهم والهجرة من وطنهم وذلک بعد سقوط مدن الأندلس بسبب النزعات الانفصالية والغزو الإسبانى وكان ينتقل بعضهم إلى الغرب وبعضهم إلى الشرق. يصف عبدالعزيز عتيق هذه التجربة الغريبة للإنسان المسلم ويقول: وليس كالاغتراب شيءٌ يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلقه به. وهذا ما حدث لهؤلاء الأندلسيين، سواء أكان اغترابهم بالانتقال من الغرب إلى الشرق، أم بالانتقال لسبب أو آخر من مدينة إلى مدينة بالأندلس. فكانوا كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم، فزِع الشعراء منهم إلى الشعر يبثونه تَوقَهم وحنينهم المشبوبَ إلى أوطانهم وأهلهم وأحبابهم (عتيق، ١٩٧٥م: ٢٧٣) بما أن هذا الموضوع الشعرى(الحنين للوطن) لم يوجد فى رثاء المدن الشرقية فنذكر فيما يلى شواهد من قصائد الشعراء الأندلسيين.

فابن شهيد (٤٢٦-٣٨٢ق/ ٩٩٢-١٠٣٥م) ينشد لوطنه ويعبر عن حنينه إلى الأيام الخوالى:

عَهدِى بها و الشَملُ فيها جامعٌ من أهلِها و العَيشُ فيها أخضُرُ
والدارُ قد ضَرَبَ الكمالُ رِواقَهُ فيها و باعُ النَقصِ فيها يَقصُرُ
و القَومُ قد أمَنوا تَغَيُّرَ حُسنِها فَتَعَمَّمُوا بجمالِها و تأزَّروا

(ابن شهيد، لاتا: ١١٠)

رغم أن «ابن شهيد لم يفارق قرطبة وعاش نهاية أيام العاصمة» (مكى، ١٩٨٧م: ٢١٥)، لكنه نظم قصائد رائعة يرثى فيها أرض الوطن ومجدها القديم ويعبر عن حماسة لها ومن خلالها ينقل حزنه وأسفه للجمهور. إن حنين ابن شهيد إلى مسقط رأسه هو شغف زمنى لأنه نظم مراثيه متأثرا بذكر الأيام الخوالى وبلغة بسيطة حزينة شجع فيها

المسلمين على الجهاد والانتفاضة على أوضاع المجتمع البائسة فى ذلک الوقت على شكل لغة حزينة.

وهذا ابن حزم الشاعر الأندلسى الذى هرب من مدينة قرطبة إلى مدينة المرية عام ٤٠٤ق (ابن حزم، طوق الحمامة، ١١٢) يصف مدينة قرطبة بعبارات مريرة:

فيا دارُ لم يَقفِرکِ منّا اختيارُنا و لو أنَّنا نَستَطيعُ كُنتِ لَنا قَبرَا
ولكنَّ أقداراً مِن اللهِ أُنفِذَت تُدَمِّرُنا طوعاً لِما حلَّ أو قَهرَا
و يا خيرَ دارٍ قد تُرِكتِ حَميدةً سَقَتکِ الغَوادى ما أَجلَّ وما أسرَا

(ابن الخطيب، ١٩٥٦م: ١٠٨)

يصور الشاعر بطريقة مقارنة الماضى المجيد والحاضر المضطرب للمدينة وبلغة الرثاء يعرب عن أسفه وندمه على مغادرة مدينة قرطبة ويعتقد الشاعر أن سبب دمار المدينة ونفيه هو الإرادة الإلهية اذا فقد دارت الأقدر وعليه لا مفر لک إلا أن تستسلم للمشيئة الإلهية.

النتيجة

غالبًا ما تكون لمراثى المدن فى الأندلس والشرق الإسلامى موضوعات ومحتويات مشتركة أبرزها: وصف ازدهار المدينة ومجدها ورونقها قبل الخراب، التحسر والأسف على ما فات، تتبع جذور الفتن والأحداث والعاطفة الدينية. ومن بين هذه الموضوعات نرى وصف ازدهار المدينة ومجدها قبل الفتنة هو أكثر وفرة فى قصائد شعراء القطرين.

لقد أبدع الشعراء الأندلسيون فى معالجة بعض القضايا مثل شعر الاستغاثة وكان هدف هؤلاء من تأليف هذه القصائد التى تبدأ فى الغالب بالمطالع الحكمية والثناء، طلب حماية المسلمين وخلاصهم من سلطة المحتلين والسعى لتحقيق الأمن والسلام لأبناء الأندلس.

كما ينتشر موضوع الحنين للوطن فى القصائد الأندلسية أكثر منه فى الشرق الإسلامى لأن الشعراء هذه البلاد أجبروا على الهجرة من وطنهم إثر الحروب والصراعات واستيلاء الأجانب على المدن الأندلسية بينما نادرًا ما نشاهد هذه الظروف فى الشرق

الإسـلامی. لذلک فإن حزن الشـاعر الأندلسی هو حزن الحنین للوطن ویعبر عن شدة انتماء الانسـان الأندلسـی وتبعیته العاطفیة للوطن المهجور لکن حنین شعراء الشرق العربی یعنـی حزنهم علی الآثار التی خلفتها الفتنة والفوضی فی مدنهم التی لم یترکها الشاعر فی أغلب الأحیان.

إن رثاء المدن هو فن أندلسـی أصیل کانت دوافعه متشـابهة إلی حد ما فی الشرق والغرب. وقد وصل الشـعراء الأندلسیون إلی الکمال فی هذا الفن الشعری بسبب کثرة الأحداث والصراعات والحروب المختلفة وخلقوا العدید من الروائع فی هذا المجال.

المصادر والمراجع

ابن الأبار، ابوعبدالله. (۱۹۹۹م). دیوان. قراءة وتعلیق عبد السـلام الهرّاس. المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامیة.

ـــــــــــــــ (۱۹۸٦م). تحفة القادم. تحقیق إحسان عباس. ط ۱. لبنان: دارالغرب الإسلامی.

ابـن تغری بردی، جمال الدیـن. (۱۹٦۳م). النجوم الزاهرة فی ملوک مصـر و القاهره. مصر: وزارة الثقافة.

ابـن حزم، ابو محمد علی بن حمـد. (۱۹۵۰م). طوق الحَمامة فی الألفة والآلاف. تحقیق حسـن کامل الصیرفی. الناشر: مطبعة حجازی.

ابن الخطیب، لسان‌الدین. (۱۹۵٦م). أعمال الأعلام. تحقیق بروفنسال. ط ۲. لبنان: دار المکشوف.

ابـن الرّومی، ابوالحسـن. (۱۹۹۸م). دیـوان. تحقیق عبدالأمیر علی مهنّـا، ط ۲. لامک: دار ومکتبة الهلال.

ابن شُـهید، ابوعامر. (لاتا). دیوان. جمعه وحققه یعقوب زکی. راجعه محمود علی مکی. القاهرة: دار الکاتب العربی.

اسـامة بـن المُنقِذ. (۱۹۸۳م). دیوان. تحقیق أحمد أحمد بَـدوی وحامد عبد المجید. ط ۲. بیروت: عالم الکتب.

الأعشـی الکبـیر، میمون بن قیس. (۲۰۱۰م). دیـوان. تحقیق محمود ابراهیم محمـد الرضوانی. ط ۱. الدوحة – قطر: وزاره الثقافه والفنون والتراث.

أمین، أحمد. (۱۹۹۹م). ظهر الإسلام، ط ۷. القاهرة: مکتبة النهضة المصریة.

أمین مقدسـی، أبو الحسـن وسید بیمان حسـینی. (۲۰۱۷م). «دلالة التکرار فی شعر بدوی الجبل». الأدب العربی. السنة التاسعة. العدد ۱. صص ۷۲-۵۳

الباشا، مهجة. (۲۰۰۰م). رثاء المدن والممالک فی الشعر الأندلسی اتجاهاته – خصائصه الفنیة. ط ۱.

دمشق: شراع.
بَهجَت، مُنجد مصطفى. (١٩٨٨م). الأدب الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطه. الموصل: مديرية دار الكتب للطباعة والنشر.
البيومى، محمد رجب. (١٩٨٠م). الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير. المملكة السعودية: المجلس العلمى.
الحلّى، عبد الحسين عباس. (٢٠٠٨م). الرِّثاء فى الشعر العربى. العصر العبّاسى حتى نهاية القرن الثّالث الهجرى. ط١. لبنان: دار القَارىء.
حمدان، عبدالرحيم. (٢٠٠٩م). «صورة المدينة الإسلامية المحتلة فى الشعر الأندلسى فى عهد المرابطين والموحدين». فلسطين. مجلة جامعة النجاح للأبحاث. المجلد ٢٣(٢). صص ٦١٢-٥٨٧
خفاجى، محمد عبدالمنعم. (١٩٩٢م). الأدب الأندلسى التطور والتجديد. ط ١. لبنان: دار الجيل.
الدايه، محمد رضوان. (٢٠٠٠م). فى الأدب الأندلسى. ط١. لبنان: دار الفكر المعاصر.
رشيد، ناظم. (١٩٨٩م). الأدب العربى فى العصر العباسى. الموصل: دارالكتب.
زرقان، عزُوز. (٢٠٠٨م). شعر الإستصراخ فى الأندلس. ط١. لبنان: دار الكتب العلمية.
الزيّات، عبدالله محمد. (١٩٩٠م). رثاء المدن فى الشعر الأندلسى. ط ١. بنغازى: جامعة قاريُونس.
السرى الرّفاء. (١٩٩٦م). ديوان. تقديم وشرح كرم البستانى. ط١. بيروت: دار صادر.
شرتح، عصام. (٢٠٠٥م). ظواهر اسلوبية فى شعر بدوى الجبل. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
الشكعه، مصطفى. (٢٠١٤م). الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه. لبنان: دار العلم للملايين.
ضيف، شوقى. (١٩٥٥م). الرثاء. ط٤. القاهرة: دارالمعارف.
ـــــــــــ (١٩٦٠م). الفن ومذاهبه فى الشعر العربى. ط١١. القاهرة: دارالمعارف.
ـــــــــــ(١٩٨٩م). تاريخ الأدب العربى عصر الدول والإمارات الأندلس. القاهرة: دارالمعارف.
الطبرى، محمد بن جرير. (١٩٦٦م). تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد ابوالفضل إبراهيم. ط٢. مصر: دار المعارف.
الطربولى، محمد عويد. (٢٠١٢م). المكان فى الشعر الأندلسى من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربى. ط ١. الأردن: دار رضوان.
عتيق، عبد العزيز. (١٩٧٥م). الأدب العربى فى الأندلس. بيروت: دار النهضة العربية.
قطريب، يوسف إبراهيم. (٢٠١٧م). أدب الوفادة لدى أدباء الأندلس داخل وخارج الأندلس. لبنان: دار الكتب العلمية.
الكفاوين، شاهر عوض. (١٩٨٤م). الشعرالعربى فى رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس. مكة المكرمة: جامعة أمالقرى.

المَقـری، احمد بن محمـد. (١٩٦٨م). نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب. تحقيق إحسـان عباس. بيروت: دار صادر.

مکی، الطاهر أحمد. (١٩٨٧م). دراسـات أندلسـية فی‌الأدب والتاريخ والفلسـفة. ط٣. القاهرة: دار المعارف.

E. Elinson. Alexander. Looking back at Al-Andalus: The poetics of loss and nostalgia in Medieval Arabic and Hebrew literature. Leiden. Brill. 2009.

Ekberg. Ibrahim »The tears of the prayer niche«. Handledare: Lena Ambjorn. New York. ARAKO .2010.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی